أهمية الحوار بين الحضارات في تحقيق السلام العالمي

د.محمود أحمد غازي
مدير الجامعة الإسلامية العالمية
بباكستان - سابقاً

مقدمة

إن قضية السلام العالمي أصبحت في عالمنا المعاصر من أهم القضايا التي تهم البشرية كلها. فعلى السلام العالمي وتوازن القوى وتحقيق العدل والالتزام بمباديء العدالة يتوقف مستقبل البشرية، فإن أسلحة الدمار الشامل التي أعدتها القوى العالمية الكبرى تكفي لتدمير الكرة الأرضية عدة مرات.

ويزداد الوضع خطورة عندما نرى بعض المسؤولين وكبار رجال الثقافة والمعرفة في الدول الكبرى يهددون الأمم والحضارات، ويتنبؤون بصدام عالمي بين الحضارات، صدام إذا حدث - لا قدر الله - فسوف يؤدي إلى القضاء على كثير مما حازت عليه البشرية من تقدم ورخاء وعلوم ومعارف منذ ألفين وخمسمائة سنة.

ويبدو أن مصدر هذه الأفكار المبنية على أسوء نوع من التشاؤم منشؤها هو التخوف من الإسلام الذي رفع لواءه بعض المغرضين في العالم الغربي الذين يريدون أن تكون سياسات البلاد الكبرى في الغرب حسب شهواتهم وأغراضهم.

وتحاول هذه الأقلية المغرضة أن تلقي العالم كله في الذل والهوان، والهلاك والدمار.

ولا يمكن إنقاذ البشرية من هذا المصير إلا عن طريق الحوار السلمي المستمر بين الحضارات وأتباع الديانات، كما لا يمكن معالجة كثير من المشكلات والقضايا التي تواجهها الإنسانية بأسرها إلا عن طريق حوار يتمتع بالحرية والمساواة بين المتحاورين.

فالحوار هو السبيل الوحيد للتعاون بين الحضارات، والتعايش الاجتماعي والاقتصادي، والمساهمة في السلام العالمي والاسهام في حل الإشكاليات العالمية.

ومن أهم هذه الإشكالات تحديد قيم إنسانية مشتركة؛ في عالم تسود فيه روح رفض القيم، وقامت فيه دعوات تنادي إلى اللاقيمية وإلى نسبية المثل الأخلاقية التي لا تؤدي إلا إلى التخلي عن كل القيم والمثل في نهاية المطاف.

والحقيقة أن العوامل التي تفكك أواصر الأسرة عروة عروة، وظاهرة الإرهاب العالمي، وانتشار المخدرات كلها نتيجة التنازل عن مبادئ الأخلاق والإصرار على نسبيته.

وهكذا تتجلى أهمية الحوار بين الحضارات الكبرى التي تمثل الحصيلة المشتركة للبشرية في مجالات المعرفة والثقافة وإنجازات العلوم والتقنية.

ما هي الحضارة

قبل أن ندخل في صلب الموضوع ينبغي أن نشير إلى أن كلمة الحضارة تطلق على معان متعددة مختلفة في سياقات مختلفة.

ولكننا نعني بالحضارة في سياق هذا الحديث الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر ومظاهر الحياة في جميع أنماطها المادية والمعنوية، فيدخل فيها الرقي العلمي والتقدم الفني والتطور الأدبي والنهضة الاقتصادية والسلوك الاجتماعي والرفاهية المادية التي تحققها وتحصل عليها أمة من الأمم، وينطبق هذا التعريف العام على جميع الحضارات القديمة و المعاصرة بما فيها الحضارات المبنية على الديانات السماوية والحضارات المبنية على النظريات المادية.

ولكن لا تتأتى هذه المظاهر المادية لحضارة من الحضارات وثقافة من

الثقافات ومدنية من المدنيات إلا إذا كانت وراءها مجموعة من العقائد والنظريات التي تحدد وجهة الحضارة المنبثقة منها، وتوفر لها حيويتها، وتضمن لمظاهرها وأجزائها وحدة متكاملة، لا تتخلى أمة ذات حضارة وثقافة من روح حضارتها وحياة ثقافتها المتمثلة في عقيدتها المتجسدة في نظريتها نحو الكون.

فالمعالم الرئيسية لكل حضارة هي التي تمثل الصلة بين العقائد والنظريات وبين المظاهر الحضارية لأمة من الأمم، فكأن هذه المعالم هي الأعمدة للبناء الحضاري، والتي تقف على قواعد الدين والعقيدة، ومنها تستمد قوتها، ومنها تستلم حيويتها، ومنها تستوحي ديمومتها وبقاءها.

فالعقيدة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف و قواعد الشريعة الإسلامية كما وردت في القرآن الكريم الذي تواطأت عليه الأمة الإسلامية بجميع مذاهبها وطوائفها وتعاقبت عليها الأجيال المسلمة وتعامل بها المسلمون في كل العصور والدهور هي قواعد الحضارة الإسلامية وأسسها التي تبتني عليها حضارة الإسلام ، ومزايا هذه النظرية والمعالم الحضارية هي العالمية والروحانية والأخلاقية والإنسانية والشمول.

وكذلك الحضارة الغربية المعاصرة لها قواعد وأسس تستند إلى الخلفية الإغريقية التي تستمد منها مجموعة من نظرياتها وعقائدها، وإلى خلفيتها الرومانية التي تستلهم منها عديدا من آرائها القانونية واتجاهاتها الفكرية، ثم إلى عقائدها المسيحية وميولها المادية، كل ذلك يمثل قواعد الحضارة الغربية وأسسها التي تقوم عليها معالمها، وهذه المعالم تختلف عن معالم الحضارة الإسلامية في

أمور، و تجتمع معها في أمور أخرى فمن أهم معالمها نظرية العلمانية التي يعتبرها الغرب من أحب قواعد حضارته وأهم معالمها وأثمن ثرواتها.

وكذلك نجد في الحضارات الأخرى قواعد ومعالم لا تتنازل عنها الأمم، بل تدافع عنها بكل ما لديها من الوسائل والطاقات، وبالدفاع عنها تبقى الحضارات، وبالإصرار عليها تزدهر، وفي بقائها بقاء الأمم.

وباضمحلالها تضمحل الحضارات. فالحضارات لا تتصارع بطبيعتها، بل تتحاور وتتبادل الآراء والأفكار ويتعلم بعضها من بعض فما من حضارة إلا وتعلمت من الحضارات الأخرى كما يدل على ذلك تاريخ الحضارات والأمم وكانت الحضارة الإسلامية في مقدمة الحضارات التي لم تتعصب في الإفادة من غيرها وأخذ كل ما يفيد البشرية في حياتها الفردية والاجتماعية بدون أن يمس ذلك العنصر المستفاد عقيدتها وأسس دينها ومعالم حضارتها ومظاهر ثقافتها، فلم يتردد علماء الإسلام في تعلم المنطق وقواعد الفكر المنطقي من أئمة اليونان ولم يستنكفوا أن يتعلموا علوم الرياضة من الهنود وكذلك علم الطب وغيرها من العلوم المفيدة، ولم يبخل علماء الإسلام في تعليم ما لديهم من العلوم والمعارف لأبناء الأمم شرقا وغربا ولم تزدهر حضارة في تاريخ البشرية إلا بالأخذ من غيرها من الحضارات والتفتح والانفتاح على كل معرفة حقيقية واكتشاف علمي ولم تمت حضارة ولم تذبل ثقافة إلا عندما أغلقت أبوابها على الآراء الجديدة والأفكار البناءة.

ولم تزدهر الحضارة الغربية المعاصرة إلا بعد أن تعلمت الكثير والكثير من الحضارة الإسلامية وذلك من روافد كثيرة ومتنوعة، منها التواجد الإسلامي

الطويل في جنوب أوروبا وشرقها والاستفادة الطويلة من المعارف الإسلامية في مراكز الغرب العلمية في مجالات الطب والعلوم التجريبية والفلسفة وحتى في مجال الفكر الديني فقد أثبت عديد من الباحثين المنصفين تأثير الحضارة الإسلامية العميقة في عديد من المجالات الفكرية والثقافية والحضارية للغرب.

كانت العلاقات بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى في الماضي علاقات حوار والأخذ والعطاء وعلى الرغم من كثير من الحروب التي بدأ بها الصليبيون كانت صلات المسلمين مع اليهود والنصارى في بلاد الإسلام صلات المواطنة بالأمن والسلام وكان طلبة العلم يردون مراكز المعرفة في العواصم الإسلامية من كل بلاد الغرب والشرق، وكان هذا الحوار الحضاري الطويل حواراً مثمراً للغاية فتمكن من الحفاظ على رصيد كبير من المعارف القديمة كما يعترف به المؤرخون في الشرق والغرب؛ كما أدى إلى تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارات الشرقية والغربية، فتأثرت الحضارة الهندوسية -على الرغم من عدائها الشديد للإسلام والمسلمين - بتعاليم الإسلام ومظاهر الحضارة الإسلامية.

ولم ينحصر هذا الأخذ والعطاء بين الحضارة الإسلامية وبين هذه الحضارات الكبيرة بل لم يتردد المسلمون في أخذ كل عادة سليمة وأسلوب مفيد ومعرفة مبنية على الحكمة من جميع الحضارات والثقافات التي تم احتكاكهم بها فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ولم يتردد علماء المسلمين في تعليم أبناء البشر كل ما كان لديهم من العلوم والمعارف والفنون والآداب والصنائع والخبرات والتجارب بدون أي تعصب عرقي أو جغرافي.

كل ذلك يدل على أن الحوار العلمي والثقافي والأخذ والعطاء في باب

الحكمة والمعرفة من مزايا الحضارة الإسلامية ولكن الاستعمار الطويل والهيمنة الغربية كانت سببا لوضع العوائق في استمرار هذا الحوار الحضاري الذي لابد من إحياء روحه والرجوع إليه من جديد.

أهمية الحوارات الداخلية

قبل أن ندخل في الحوار الحضاري مع الحضارات الأخرى ينبغي أن نبدأ سلسلة من الحوارات الداخلية بين الاتجاهات المختلفة في العالم الإسلامي سواء مثلت هذه الاتجاهات وجهة نظر الطوائف والمذاهب الإسلامية المعتدلة أو آراء المذاهب المنحرفة والاتجاهات الهامشية وذلك لأن إغلاق الشبابيك وسد الأبواب والنوافذ في وجوه هذه الاتجاهات لم تعد مجدية.

اسمحوا لي أن أصارح بأن معالجة هذه الاتجاهات التي تمثل الآراء الشاذة والطوائف الأقلية معالجة كافية مفيدة مثمرة لا يمكن بالأساليب التقليدية، فكانت فتاوى العلماء في السابق أسلوبا من الأساليب المؤثرة في معالجة الاتجاهات المنحرفة ولكن العصر الحاضر فتح أبواب الإعلام وتناقل الآراء بطريقة تمكن بها كل من أراد أن ينشر آراءه من نشرها من أقصى الأرض إلى أقصاها بين عشية وضحاها ولا تصل فتاوى العلماء والمشائخ إلى معشار ما تصل إليه هذه الآراء الشاذة والمشوهة.

ثم إن لغة الفتوى وأسلوبها لا يؤثران في كثير من الأحوال في إقناع الأجيال المثقفة بالثقافة العصرية فأصبح دور الفتوى في توجيه الناس وترشيد الشعوب وتثقيف الشباب يتقلص يوماً فيوماً.

وهذه الدعوات والنداءات التي ظهرت من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية

المختلفة لإعادة النظر في النصوص الدينية بما فيها النص القرآني وإعادة تعبيرها وتفسيرها كنص تاريخي إنساني ليست ببعيدة فعلى الرغم من ضعفها علمياً وضآلتها محتوى وتفاهتها دليلاً انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي وترددها الصحافة والإعلام ويناقشها الشباب والسيدات وتتناقلها الأقلام ولم يعبأ كثير من الناس بالفتاوى التي صدرت بشأنها من المرجعيات الدينية المعنية.

وهذا كله يدعو إلى أن ندرس إمكانية اتخاذ تدابير أخرى لكي نضيفها إلى التدابير والوسائل الموجودة وفي رأيي أن الحوار يعتبر من هذه الوسائل الممكنة التي يمكن أن يستخدمها أصحاب الخطاب الإسلامي المتزن الذين يمثلون جماهير الأمة الإسلامية من أهل السنة والجماعة وأصحاب المذاهب الفقهية المعروفة مع أصحاب الخطاب اللبرالي الذي يعتني به الغرب اعتناء بالغاً ويحاول أصحاب القرار والنفوذ في العواصم الغربية أن يتضامنوا مع ممثلي الخطاب الليبرالي في العالم الإسلامي ويوفروا لهم كل دعمهم وتأييدهم كما تدل عليه التقارير الصادرة من بعض الجهات الهامة

ولابد كذلك من أن تبدأ القيادات الإسلامية حكومات وجماعات ومرجعيات إسلامية ومؤسسات علمية حواراً مع أصحاب الخطاب اليساري والخطاب "الأصولي" والخطاب الطائفي الذي يستغله أعداء الإسلام لتكثيف الخلافات بين أبناء الأمة ولتوسيع فجوة النزاعات بين الاتجاهات الموجودة داخل دار الإسلام

ولا ريب في أن وجود هذه الاتجاهات في كثير من البلاد الإسلامية حقيقة واقعية لا يمكن تجاهلها والتغافل عنها ولاشك أيضا أن وجود هذه الاتجاهات

المتنازعة فيما بينها يمثل ثغرة يمكن استغلالها من قبل أعداء الإسلام خاصة إذا تجاهلت القيادات الإسلامية وجودها وإمكانية استغلالها وكانت لازالت النزاعات العقائدية والطائفية والعنصرية القائمة بين هذه الاتجاهات والطوائف من أهم أسباب الإخلال بالاستقرار الداخلي في كثير من البلاد الإسلامية.

والواضح أن الاختلال في الاستقرار الداخلي يؤدي إلى عدم الاستقرار في المجتمع والمنطقة وعدم الاستقرار في مجتمع أو دولة أو منطقة يؤدي إلى اختلال أنظمة الأمن والقضاء في البلاد.

والاختلال في أنظمة الأمن والقضاء يؤدي إلى حالة الفوضى التي تزداد فيها محاولات المغرضين وأصحاب الشهوات للنيل من أعراض الناس وأموالهم ودمائهم، وهذا كله يؤدي إلى إخلال بالأمن داخلياً والسلام عالمياً، فالحوار المتواصل الدائم داخل العالم الإسلامي وبين الأمة الإسلامية من أهم ما تحتاج إليه الأمة الإسلامية، ثم هذا الحوار الداخلي والبيني بالإضافة إلى تقليل أسباب النزاع وتخفيف التوتر بين طوائف الأمة يكون نوعا من النقد الذاتي الذي لابد منه في هذه الآونة الأخيرة.

الصراعات الحضارية

إن الحديث عن الصراعات الحضارية أصبح الشغل الشاغل وحديث النوادي والمحافل بعد ظهور المقالات التي كتبها المفكر الأمريكي صمويل هنتنجتون، وكان قد نشر مقالة في المجلة الأمريكية المعروفة، وهي الشؤون الخارجية Foreign Affairs ثم أتبعها بكتاب مفصل شرح فيه نظريته عن صراع الحضارات وأنذر العالم الغربي مما يتوقعه (أو يريده) من صراع كبير

يؤدي إلى حرب كبرى بين الحضارة الغربية التي يمثلها العالم الغربي وتتزعمها الولايات المتحدة وبين مجموعة من الحضارات الشرقية التي يظن المؤلف اليهودي الأمريكي أنها سوف تتحالف ضد سيطرة الحضارة الغربية وسوف تكون عليها يدا واحدة، وهذا التحالف المزعوم في ظنه سوف يضم الحضارة الإسلامية التي تمثلها الدول الإسلامية التي تمتلك وسائل النفط أو التي تمتلك قوى عسكرية كبيرة كما يضم الحضارة البوذية التي تمتاز بكثرة عدد أتباعها.

ويرى المؤلف الأمريكي أن الحضارة البوذية تمثلها الصين الشعبية بكل وسائلها الهائلة ويدعو المؤلف الأمريكي العالم الغربي ليستعد لهذا الصراع المحلق على رؤوسهم والمحدق بهم قبل أن يفوتهم الأوان ليضمن العالم الغربي بقاء سيطرته على العالم كله سياسيا وعسكريا والحفاظ على هيمنته على الكرة الأرضية اقتصاديا وماديا ويقترح للعالم الغربي خطوات متعددة يجب الأخذ بها لتحقيق هذا الهدف

على الرغم من أن الهدف الحقيقي الذي يحاول المؤلف الأمريكي تحقيقه هو إعداد العالم الغربي لهذه المحاربة المتوقعة إعدادا نفسيا، ولكنه يحاول أن يبرر هذه المحاولة بفكرة جديدة في تاريخ الحضارات والتطور الحضاري للبشرية في المرحلة المعاصرة، ومع أنه يدعو إلى تشكيل نظام عالمي يبتني على تعدد الحضارات وتعدد الثقافات، ولكنه يبدو وكأنه لا يريد أن يسمح للحضارة الإسلامية أن تلعب دوراً قيادياً رياديا في العطاء الحضاري للبشرية والمستقبل الذي يراه، وهو في ظنه مستقبل تسود فيه الثقافة الغربية وتسيطر فيه الحضارة الغربية وتكون الهيمنة فيه للأنظمة الاقتصادية الغربية وتكون

الكلمة المسموعة فيه للولايات المتحدة.

هذه هي الفكرة الخطيرة التي دعت أصحاب العلم والفكر في العالم أن يدرسوها دراسة علمية نقدية ويبدوا آراءهم فيما تحتوي عليها من مضامين خطيرة وما يترتب عليه من نتائج بعيدة المدى لمستقبل العالم بصفة عامة ومستقبل العالم الإسلامي بصفة خاصة لأن الغرض كما يبدو من وراء ترويج هذه الفكرة هو سد الطريق في وجه الدعوة الإسلامية التي تنتشر بسرعة فائقة في العالم الغربي والشرقي وبدأت الجاليات الإسلامية ذوات العدد والنفوذ في بلاد الشرق والغرب تظهر وتثبت وجودها في مجالات الحياة المختلفة.

وقد ثبت عند كثير من أهل الفكر والخبرة في العالم الغربي أن سد الطريق في وجه المد الإسلامي المتزايد لم يعد بإمكان الغرب بالطرق السلمية البحتة ولا بد لذلك من سياسة عنيفة ومن اتخاذ خطوات غير تقليدية.

ويدل على هذه الفكرة ما جاء في كتابات الزعماء الأمريكيين من أمثال هنري كسنجر والرئيس الأمريكي السابق نكسون غيرهما من الذين صرحوا بضرورة اتخاذ خطوات غير تقليدية لسد الطريق في وجه المد الإسلامي وضمان الهيمنة الحضارية والاقتصادية للعالم الغربي وكل هذه الكتابات المطبوعة والمقالات المنشورة والآراء المعبرة عن نواياهم في مناسبات مختلفة إن دلت على شيء؛ فإنما تدل على أن هناك اتجاهاً قوياً في العالم الغربي للدخول في مرحلة خطيرة من مراحل الصدام العسكري بين القوى الغربية التي تتزعمها الولايات المتحدة وبين غيرها من القوى.

ويبدو أن مصطلح صراع الحضارات ستار وضع على الوجه الحقيقي لهذا

الصدام العنيف الذي يهدف إلى السيطرة الكاملة على الوسائل العالمية والقضاء على كل قوة صغيرة وكبيرة تستطيع أن تناهض وتتحدى الهيمنة الغربية، وليست محاولات السيطرة على العراق وأفغانستان والمشكلات القائمة في السودان والصومال إلا مظاهر لهذه السياسة الجديدة وخطوات في سبيل تطبيقها وتنفيذها وما هي فكرة العولمة ومؤسساتها وآلياتها إلا ساحة من ساحات هذا الصدام الاقتصادي والصراع الحضاري.

العولمة ودورها في صراع الحضارات

ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر أن العولمة طبعة جديدة لفلسفة الحكومة العالمية التي يسعى من أجلها الصهاينة منذ أمد بعيد وذلك لأن مقاليد الأمور في النظام العولمي الذي يحاولون إقامته وتشكيله تكون بأيدي الرأسماليين القلائل الذين يديرون السوق العالمية والذين أغلبيتهم من الصهاينة أو من الموالين للصهاينة ويهدفون بذلك إجحاف مؤسسة الدولة بأسرها في وجه سلطته المطلقة وفي نهاية المطاف تسيطر هذه المجموعة من أصحاب الشركات العالمية على الدول الوطنية والتي لن تجد بُداً من أن تخضع لحركة السوق ومصالحها فحكومة العولمة لا تكون إلا عبارة عن حكومة رجال الأعمال والمال. ودستور العولمة لن يختلف عن قانون الأقوى الذي تعاني منه البشرية منذ بدايتها.

يقول أحد الكتاب الغربيين: إن العولمة عندما تصل غايتها المنشودة وتحقق هدفها المطلوب يكون في العالم مجتمع موحد له قواعد ومثل موحدة ثم تكون هناك ثقافة موحدة في هذه الكرة الأرضية ولا تكون هناك حكومة مركزية لتنظيم هذه الأمور، فتنعدم حينئذ الحدود الجغرافية وتتلاشى الفوارق الحضارية

والاجتماعية والدينية بين البشر ولا تبقى قواعد ثابتة لتنظيم الثقافة ويظهر مجتمع عولمي بدون ثغور سياسية وحدود اجتماعية وقواعد دينية ثابتة وهذا لا يعني في نظرنا نحن المسلمين إلا فوضى حضارية تتلاشى فيها الديانات السماوية والثقافات العريقة والحضارات القائمة على مثل إنسانية وقيم أخلاقية.

يقول كاتب غربي آخر وهو "روبرتسون" أن العولمة ليست ظاهرة جديدة إنما هي فكرة قديمة قدم الاستعمار الغربي ومرت بخمس مراحل قبل أن تصل إلى المرحلة الراهنة.

وإذا نظرنا إلى العولمة من هذه الناحية رأينا أنها تحتوي على جذور استعمارية قوية أكثر خطورة من الاستعمار السابق وذلك لأن القوى الاستعمارية الغربية في السابق كانت تحاول أن تحقق مصالحها السياسية في العالم الإسلامي للوصول إلى مصالحها الاقتصادية، فالشركة الهندية الشرقية مثلا كانت مؤسسة تجارية في حقيقة أمرها وبداية نشاطها، وقد خرجت من بلدها ومركزها أصلاً وبداية لتحقيق المصالح الاقتصادية ولم تتدخل في سياسات البلاد الشرقية إلا عندما اضطرت إلى ذلك لخدمة اقتصادها وتجارتها .

أما الآن فقد جاءت القوة الاستعمارية الغربية بمشروع استعماري جديد يضم مصالح ثقافية واجتماعية وعسكرية وحضارية جديدة بالإضافة إلى المصالح السياسية والاقتصادية القديمة، فالعولمة القديمة كانت عبارة عن صورة من الاستعمار الغربي.

أما العولمة الحديثة فهي عبارة عن الهيمنة الأمريكية الكاملة والمطلقة في كل مجالات الحياة ويمكن أن نقول بأن العولمةالجديدة عبارة عن أمركة الكون كله.

إن المؤسسات الغربية بما فيها المؤسسات الأمريكية والكتاب الغربيون

والصحافة الغربية كلهم يؤكدون على التنوع والتعددية عندما تكون القضية متعلقة بالأقليات غير المسلمة داخل العالم الإسلامي ولكنها تنسى كل دعاويها للعولمة والتعددية إذا كانت القضية متعلقة بوضع سياسة وطنية عامة في وطن إسلامي يريد أن يؤكد انتماءه إلى الشريعة الإسلامية ويحاول أن يضمن استمراريته في سياسة الاحتكام إلى الشريعة، فعندئذ يتناسى الغرب كل دعاوى التنوع ومطالب التعددية عندما تأتي قضية العالم الإسلامي وحقوقه الثقافية ومكانته الحضارية هذه الثنائية في السياسة وازدواجية المعايير تسبب كثيراً من المشكلات والتوترات فيما يتعلق بصلة العالم الإسلامي بالعالم الغربي .

فالخلاصة أن العولمة اسم جديد لمصطلح "النظام العالمي الجديد" الذي نادى به زعماء الغرب وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وزوال الشيوعية وقبل خوضه في حرب الخليج الأولى.

ومن المعلوم أن حرب الخليج الأولى كانت بداية لتنفيذ خطة مدروسة لتغيير النسيج الاجتماعي والثقافي والحضاري للأمة الإسلامية ولذلك لا يشك المفكرون المطلعون في أن العولمة ليست إلا امتدادا لهذه السياسة المدروسة فنرى المفكر الإسلامي المعروف وهو الدكتور محمد عمارة يعرف العولمة بأنها الاجتياح الغربي بزعامة أمريكية لصب العالم كله في قالب الحضارة المهيمنة.

فالعولمة عملية جبارة يقوم بها زعماء العالم الغربي لأحداث تغييرات جذرية أساسية في أنظمة البلاد والشعوب خاصة ما يسمى بالدولة الوطنية وذلك بتغيير القواعد والمبادئ التي تنظم علاقات الناس والتنظيم الاجتماعي والأساس الفكري والثقافي والحضاري للمجتمع، ولذلك لم يتردد بعض

المنصفين من الكتاب الغربيين في تسمية العولمة نوعا جديدا من الاستعمار.

والعجب العجاب أنه على الرغم من هذا كله يرى بعض الناس من أصحاب القلم والقرار في العالم الإسلامي أن العولمة سوف تأتي بنظام عالمي جديد يسوده العدل وتحكمه قواعد المساواة والعدالة وتوفر فيه لكل بلد وشعب فرص المنافسة الحرة ... لكن الواقع المر- كما لا يخفى على كل مطلع خبير- أن العولمة لم تأت بإحلال أي عدل أو مساواة أو تحقيق أي هدف أخلاقي أو لإنقاذ البشرية أو الشعوب الفقيرة من فقرها الاقتصادي وتخلفها المادي والعلمي أو للقضاء على الظلم والاستغلال وعدم المساواة أو لتمهيد الطريق للدول المتخلفة لتحقيق آمالها في الرقي الاقتصادي أو لتذليل الصعوبات أمام الدول المسلمة الفقيرة لتسير في مجال التطور المادي والنهضة الاقتصادية.

إن العولمة جاءت لتحقيق أهداف أخرى تختلف عن هذه التوقعات والآمال تماماً.

إن الحقيقة المؤلمة أن دأب الغرب وديدن المستعمر أنه يستخدم شعارات جذابة ويضع عبارات خلابة لاستجلاب الرأي العام في العالم الشرقي بصفة عامة وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة، وذلك لتخفيف المعارضة في سبيل تحقيق أهدافه، ولكن هذه العبارات الخلابة والشعارات الجذابة في أغلبية الأحوال كلمات حق يراد بها الباطل، فدعاوى الحرية والتنافس الحر والمساواة وسيادة القانون والاحترام لحقوق البشر وصيانة سيادة الدول والحفاظ على ثقافات الشعوب وغيرها من الشعارات التي ترفع على المنابر العالمية لم تعد (على الأقل بالنسبة للعالم الإسلامي) بأي ثمرة فعلية وأي

عائد حقيقي، ومن ذا الذي يعرف حقيقة هذه الشعارات التي نسمعها من أفواه الكتاب الغربيين ونقرأها في كتاباتهم منذ أكثر من قرنين أكثر منا نحن الذين عانينا من الاستعمار الطويل ونعاني منه الآن في فلسطين والعراق وأفغانستان والبوسنة والهرسك وقبرص وكشمير وجنوب الفلبين والصومال وجنوب السودان وغيرها من بلاد العالم.

والجدير بالذكر أن بعض الكتاب الغربيين الذين تنبؤوا بنهاية التاريخ في نهاية القرن الماضي يعتبرون العولمة المرحلة الأخيرة قبل أن ينتهي التاريخ بوصول الحضارة البشرية مرحلتها الأخيرة والنهائية الكاملة نضجا وتطورا ورقيا وذلك لأن العولمة عندهم عبارة عن انتصار النظام الرأسمالي انتصاراً كاملاً، وهذان هما الهدفان الرئيسيان للعولمة وهذا ليس رأي بعض علماء الاجتماع الغربيين الذين ينظرون إلى الأمور من الناحية النظرانية البحتة فحسب، ولكنه تفكير عام يشترك فيه أهل الغرب كلهم من الزعماء السياسيين وأصحاب القلم والقرار وأساتذة الجامعات وأعضاء المجالس الانتخابية فهذا الرئيس الأمريكي السابق بل كلنتون يصرح بأن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري "وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً لتحويل العالم إلى صورتنا".

وهذا الالتزام المقدس يذكرنا بالتزام مقدس آخر قام به الغربيون لتثقيف الإنسان الشرقي وتحضيره، وهو الالتزام الذي كان يسمى بمسؤولية الإنسان الأبيض.

والمعلوم أن مسؤولية الإنسان الأبيض تجلت وتحققت في عالم الواقع في صورة استعمارية بشعة سفكت دماء الملايين من الأبرياء من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه وقضت على آلاف المراكز العلمية وطمست على كثير

من المعالم الحضارية والثقافية وأدت إلى سرقة ملايين الكتب والمخطوطات والتحف الأثرية التي نجدها اليوم في مكتبات الغرب ومتاحف أوروبا. وهذا كل ماجاء به الالتزام المقدس القديم ولا نعرف ماذا يأتي به هذا الالتزام المقدس الجديد في جرائه للعالم الإسلامي.

وينبغي أن لا ننسى أن عديدين من الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن العولمة يحاولون تقدمتها في صورة ايجابية رشيقة ولكنهم أيضا يشيرون إلى هذه الجوانب السلبية بإشارات صريحة وواضحة، فهذا المفكر الاسترالي مالكوم واترز مؤلف أحد الكتب الواسعة الانتشار عن العولمة يقول: إن ظاهرة العولمة تتصل بصلة جوهرية فعلية بالأساليب وأنماط النهضة الاقتصادية كما تشبعت في مجالات السياسة والثقافة.

ويقول مفكر غربي آخر: إن العولمة لا تعني أن يتغرب العالم كله، وفي جميع أموره، بل هي تعني على الأقل تفضيل الإمكانيات الرأسمالية والمثل الغربية ويوضح مالكوم واترز في كتابه هذا أن فكرة التحديث والحداثة كانت سلفا لفكرة العولمة وكانت فكرة ذات صلة بها فكلاهما تهدفان إلى بث الثقافة الغربية ونشر المثل الغربية وتأسيس مجتمع رأسمالي.

ويقول: إن العولمة نتيجة منطقية مباشرة لتوسعة الثقافة الأوروبية في أنحاء الكرة الأرضية وذلك عن طريق إقامة مستعمرات غربية في بلاد العالم والاستعمار المباشر للبلاد الشرقية ثم عن طريق فرض تقليد المثل الغربية ومحاكاة العادات الأوروبية على المجتمعات الشرقية.

على الرغم من اهتمام العولميين بالجانب الثقافي والحضاري للحياة البشرية

فإن الحقيقة أن مشروع العولمة أصلا وحقيقة مشروع اقتصادي، وتحتل المصالح الاقتصادية والتجارية للغرب بصفة عامة، والولايات المتحدة بصفة خاصة، مكانة الصدارة والصميم في كل ما يتعلق بالعولمة كان نظام بريتون ودس الذي قامت به القوى الغربية الاقتصادية الكبرى بتأسيسه في وسط القرن العشرين للحفاظ على مصالحهم التجارية والحفاظ على مكانتهم القيادية الرئيسية في النظام الاقتصادي العالمي واستمرار هذا النظام لعدة عقود يحقق لمؤسسيه مصالحهم وأهدافهم. ولكنه عاد ضعيفا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وظهور الصين واليابان على ساحة الملعب الاقتصادي العالمي.

وهذه الظاهرة هي التي أدت إلى سقوط نظام بريتون ودس. وهذا السقوط هو الذي دعا إلى ظهور العولمة التي تضمن هيمنة مطلقة وكاملة لنمط الإنتاج الرأسمالي وانتشاره في الصميم مضافا إلى انتشاره في الظاهر.

ومما يدل على كون هذه الهيمنة واسعة وشاملة أن علماء الغرب وخبراء العلوم الاجتماعية والإنسانية قاموا بمحاولة علمية جبارة لإعادة النظر في الدراسات الاجتماعية والإنسانية التي بدأت تدخل مرحلة جديدة في تدوينها وإعادة بناء أسسها في ضوء الفكر العولمي الشمولي فيقول أحد المفكرين الغربيين أن العولمة أصبحت إطارا مرجعيا لكل الدراسات الاجتماعية والإنسانية منذ عقد التسعينات.

لاشك أن سقوط النظام الشيوعي وانهيار الاتحاد السوفيتي وظهور القطب الواحد وانتهاء الثنائية القطبية وسقوط النظام المالي العالمي الذي كان يمثله نظام بريتون ودس من أهم أسباب استقرار العولمة.

ولكن بالإضافة إلى هذه الأسباب هناك أسباب أخرى ساعدت في تمكين هذه النظرية وتكوين نظام عولمي جديد. وهذه الأسباب هي أيضا أهم الآليات التي توفر الأجهزة العملية للنظام العولمي.

وتتجلى هذه الأساليب في التطورات السريعة سرعة بالغة في مجال تقنية الاتصالات وتوسعة نطاق المعلوماتية وسرعة المواصلات. وهذه المعلوماتية الالكترونية السريعة من أهم آليات ما يمكن أن نسميه بالإمبراليـة الثقافية، والتي سماها بعض الكتاب الغربيين باليونبرتية الالكترونية. هذه اليونبرتية جعلت الإنسان حيواناً مستهلكاً يتهافت على كل جديد ولذيذ.

ضرورة الحوار مع الحضارات الأخرى

ولاشك أن هذا الوضع الذي يدعو في ظاهره إلى التشاؤم يقتضي القيام بهذا الحوار المطلوب، ليس فقط مع الحضارات والثقافات الأخرى، بل أيضاً مع المجموعات الإسلامية المختلفة والطوائف المذهبية والدينية داخل العالم الإسلامي، علماً بأن هذا المستوى الثاني من الحوار أصبح أمراً متحتماً على قادة العالم الإسلامي الفكريين نظراً إلى توتر العلاقات بين الطوائف الإسلامية والمذاهب الكلامية الموجودة في بعض بلاد العالم الإسلامي. والحوار كان من أهم خصائص الثقافة الإسلامية وأكبر مزايا الحضارة الإسلامية منذ البداية.

فنجد في القرآن الكريم صوراً رائعة من الحوار الديني والدعوة إلى الحوار. ثم قام النبي ﷺ بحوارات عديدة مع أهل الكتاب وغيرهم وتبعه كبار المجتهدين الذين قاموا بعملية جماعية للاجتهاد عن طريق الحوارات

الفقهية بين الأستاذ المجتهد وتلاميذه الفقهاء.

وكان من آثار وبركات هذه الطبيعة الحوارية للحضارة أن ظهر علم مقارنة الأديان على أيدي عباقرة أهل العلم من أمثال البيروني والشهرستاني وابن حزم وغيرهم.

إن الإسلام يختلف عن التيارات الفكرية التي تظهر من حين لآخر، ولا يمكن أن تذوب هويته في بوتقة الثقافات الأخرى إذا كان المسلمون على علم وبصيرة من دينهم.

فالعالمية والإنسانية من خصائص الإسلام ولا يمكن للإسلام أن يخشى على هويته واستقلاليته من أي شي عالمي أو إنساني فالإسلام لم يتأثر بالتيارات الوافدة التي ظهرت في الماضي والتي يكثر ظهورها في هذه الأيام ولكن نخشى على الشباب وغير المثقفين من جماهير المسلمين أن يتأثروا بها.

إن الحوار ينبغي أن يكون من أهم السمات الحضارية للعولمة. ولا خلاف فيه من حيث المبدأ. ولكن لابد أن نضع قواعد علمية للحوار البناء المثمر فلا يجدي أي حوار بين ضعيف وقوي إلا أن يكون على أساس العدل وبالمبادئ المشتركة.

وينبغي أن لا ننسى أن هدفنا هو الحوار مع الشعوب والحضارات وأتباع الديانات، وليس بين الديانات. فالحوار بين الحق والباطل لا معنى له ونرفض أي حوار يتعامل مع الحق والباطل تعاملا متساوياً، فلا نقبل حواراً يسوي بين الكفر والإيمان والوحي والطغيان، والحق والبطلان.

أزمة الحداثة

ينبغي أن لا ننسى أن الحداثة الغربية التي اكتسحت العالم من أقصاه إلى أقصاه من أهم ما تواجه الأمة الإسلامية من مسائل وقضايا. ولا بد أن تكون هذه القضايا من أهم موضوعات الحوار الداخلي بين الاتجاهات الموجودة في الأمة وبين العالم الإسلامي وأصحاب الحضارات الأخرى.

إن هذه الحداثة تظهر في باديء أمرها وفي مظاهرها كأنها من أكبر معطيات الحضارة الغربية ولذلك يدعو كثير من أبناء الأمة إلى الأخذ بها بكل حذافيرها ويرون أنها لا تأتي إلا بخير مادي غزير، ولا تؤدي إلا إلى رفع المستوى المعيشي للأمم والشعوب التي تحتضنها. فنراهم يتهافتون عليها تهافت العطشان على الماء.

ولكننا عندما نمعن النظر فيها ندرك أنها من أهم أسباب عدم الاستقرار في البلاد الإسلامية والاختلال الذي يؤدي أحياناً إلى الإخلال بالأمن والسلام. إن أسس الحداثة تتلخص فيما يلي:

١- الفردانية.

٢- العقلانية.

٣- الاهتمام المتزايد بالعلوم المادية.

٤- التركيز المتزايد والعناية البالغة بالتقنية والفنون التجريبية.

٥- الاهتمام بالواقع الموجود.

٦- الأخذ بنظرية تقدم التاريخ من مرحلة إلى مرحلة.

إن كل واحد من هذه العناصر والمكونات يحتوي على عناصر غير متناغمة مع قواعد الشريعة الإسلامية وروح العقيدة ورسالة الإسلام. فالفردانية عبارة عن الاهتمام بمصالح الفرد المادية وتحقيق حاجاته ومنافعه بغض النظر عن واجباته ومسؤولياته نحو خالقه ونحو الأمة التي ينتمي إليها ونحو حياته بعد مماته. وهذه الفردانية تخلق في عقول الناس روحاً من الحرص والشح بحيث تؤثر ذلك على سلوك الفرد الاجتماعي والأخلاقي الذي تريده منه رسالة الإسلام، وهذا الوضع يؤدي إلى صدام عاطفي متواصل بين هذه النزعة المادية وبين مقتضيات رسالة الإسلام.

وليس دور العقلانية في تقوية التوتر بين المصالح المادية والمقتضيات الشرعية بأقل من دور النزعة الفردانية. ثم إن هذه العقلانية البحتة التي تدعو وتنادي وتصر على التخلص من كل متطلبات الدين ومقتضيات الروح ومطالب الأخلاق تسربت إلى العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية وإلى مقررات التعليم ومناهج الدراسة في مؤسسات التعليم.

والجيل الذي يتخرج من هذه المؤسسات يبتعد في كثير من الحالات عن المعايير المطلوبة في مجتمع إسلامي. فكل جيل يتخرج من المؤسسات التعليمية الغربية والمتغربة يؤدي إلى توسيع الفجوة الموجودة بين طوائف الأمة المختلفة كما يؤدي إلى تكثيف التوتر القائم بين أصحاب الاتجاهات المختلفة في العالم الإسلامي.

وكذلك الحال مع العناصر الأخرى للحداثة الغربية. وروح كل هذه العناصر هي الاحتكام إلى العقل البشري الذي ينظر إلى العالم كله وإلى

الكون بأسره بنظرة مادية نفعية بحته في كل ما يتعلق بمصير الإنسان ودوره في هذا الكون، مع الإصرار على إبعاد الدين والمصادر الإلهية.

إن العالم الإسلامي ليس الوحيد الذي يعاني من هذه الأزمة الحضارية التي جاءت بها الحداثة والتي وسعت كل جوانب الحياة الأخلاقية والأدبية والثقافية والاجتماعية ولكن هذه الأزمة الحضارية التي تولدت من بطن الحداثة الغربية وما يسمى بنظريات ما بعد الحداثة تعاني منها الحضارات كلها. وهي من أكبر أسباب تهديد الأمن والحرية الإنسانية بما فيها الحضارة الغربية نفسها.

ويرى بعض المفكرين المسلمين المعاصرين أن أزمة الحضارة الغربية الراهنة لا يمكن القضاء عليها وحل القضايا و المشاكل التي سببتها من داخلها فقط، خاصة بعد أن وصلت إلى مرحلة متطرفة من الاستعلاء وإنكار الحضارات الأخرى وثقافاتها، حتى وصل الأمر ببعض المفكرين إلى النحو الذي يعبرون عنه بنظريات النهاية.

فمنهم من أعلن نهاية الدين، ومنهم من أعلن نهاية الأيديولوجية، ومنهم من أعلن – والعياذ بالله – موت الخالق، ومنهم من أعلن نهاية التاريخ. وهذه النظريات التي يتبناها كبار مفكري الغرب وفلاسفته إن دلت على شيء؛ فإنما تدل على روح الكبر والاستعلاء والإعجاب بالنفس التي يعاني منها علماء الغرب.

إن هذه الروح التي تعبر عما يعاني منه فلاسفة الغرب من الإعجاب بالنفس والاستعلاء والاستكبار والغرور بما وصل إليه الأوروبيون من مظاهر جذابة من الرقي المادي والتقدم التقني هي التي تدعوهم من حين لآخر إلى التنبؤ بنهاية التاريخ ونهاية الحضارة ونهاية الرقي البشري.

وفي هذه الدعاوى دليل على عدم قدرة هؤلاء المفكرين على إدراك

الإمكانات الهائلة التي أودعها ربنا سبحانه وتعالى في خليفته في الكون، الخليفة الذي سجدت له أقوى القوى الموجودة في الكون المتمثلة في الملائكة. وكأن في ذلك إشارة إلى أن الإنسان منح مكانة من الكرامة عالية من ربه، وأنه كلف بحمل الرسالة الإلهية ونشرها بين أبناء جنسه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

وليست هذه الدعاوى هي الأولى والأخيرة من نوعها فقد ادعى المؤرخ المعروف والمفكر البريطاني الشهير أرنولد توينبي قبل حوالي ثمانين سنة من الآن في بداية القرن العشرين أن الحضارة الإسلامية هي من بين الحضارات التي تعاني من سكرات الموت تحت وطأة الإبادة والاحتواء من قبل الحضارة الغربية.

وكان هذا التنبؤ صدر عنه في وقت كانت الإمبراطورية البريطانية في إبان ازدهارها، ولم تكن تغرب عنها الشمس وكانت أغلبية بلاد العالم الإسلامي في تلك الحقبة من الزمن تحت سيطرة الاستعمار الغربي فظن المؤرخ البريطاني -متناسيا كل ما قرأه من التاريخ ومتجاهلا كل ما درسه من أسباب سعادة الأمم وشقائها وعن قيام الحضارات وسقوطها- أن هذا الوضع سوف يستمر كما كان عليه في بداية القرن العشرين.

فادعى ما ادعى وبسط على دعاويه وآماله ستاراً من العلم والبحث والتحقيق.

ولكن سرعان ما انكشف الغطاء وتقلص الاستعمار البريطاني وتقوقعت مرة أخرى في جزيرتها التي لا تكاد تشرق فيها الشمس. وشاءت مشيئة الله أن يعيش توين بي ويشاهد تكذيب تنبؤاته بأم عينيه.

إن هذه الأزمة بين العالم الإسلامي وبين الغرب اشتدت بسرعة فائقة منذ نهاية الثمانينات، السنوات التي تبين فيها للعالم الغربي أن الاتحاد السوفيتي لم يستطع أن يقوم في وجه المجاهدين الأفغان الذين قاوموا الهجوم السوفيتي على بلادهم بكل ما لديهم من الوسائل الضئيلة والعزيمة الأفغانية المعروفة والطاقة الإيمانية.

وقد بدأ الغرب يدرك طاقات العالم الإسلامي الكامنة و الحيوية الموجودة في نظرية الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى. فبدأ يستعد لمواجهة المد الإسلامي الذي كان من المتوقع أن يكتسح العالم الإسلامي بعد الفتح الأفغاني.

ومن جانب آخر لم يشأ الاستكبار الغربي أن ينسب انهيار النظام الشيوعي وسقوط الاتحاد السوفيتي إلى عزيمة شعب الأفغان وانتصار القوى الإسلامية المتمثلة في المجاهدين الأفغان والحق يقال إن القيادات الجهادية الأفغانية أيضا لم توفر فرصة حسن الظن بهم خلال السنوات التي تلت جلاء القوى السوفياتية، فالمحاربات الدامية الطويلة التي جرت بينهم خلال عشر سنوات من سقوط النظام الشيوعي أساءت إلى سمعة القيادات الجهادية خاصة، وإلى صلاحية القيادات الإسلامية عامة.

فاعتبر العالم كله أن انهيار النظام الشيوعي وسقوط الاتحاد السوفيتي عبارة عن انتصار كبير للأنظمة الغربية والحضارة الغربية. وبدأ العالم الغربي يعتبر هذا الانتصار مبررا كبيرا لكل ما يقوم به من محاولات جلية وخفية ومساعٍ ظاهرة وباطنه، لفرض أنظمته على العالم كله بما فيه العالم الإسلامي.

وينسى أو يتناسى ويتجاهل كثير من الغربيين أن انهيار النظام الشيوعي

ليس إلا انهياراً لنظام من الأنظمة الغربية وليس سقوطه إلا سقوطا لدولة استعمارية غربية، فالشيوعية بأسرها كانت نظاما غربيا وإنتاجا فكريا أوروبيا ولم يكن للشرق أي دخل في وضع فلسفتها ولم يكن للفكر الشرقي أي دور في تجديد أسس الشيوعية وقواعدها.

إن كون النظام الشيوعي نظاما غربيا بحتا وكون الاتحاد السوفيتي امتدادا للقوة الروسية الاستعمارية التي سيطرت على مناطق شاسعة من بلاد الإسلام أمر معلوم من التاريخ العالمي المعاصر بالضرورة.

وتشترك الشيوعية في عديد من خصائصها وتصوراتها مع الفلسفة الديمقراطية المتحررة فكل من النظامين الديمقراطي الغربي والشيوعي الأوروبي- علماني بحت، يؤمن إيمانا كاملا بفصل الدين عن الدولة، وعزل تعاليم الدين والأخلاق من المجتمع، وكل منها لا يقبل أي دور للمثل الأخلاقية والقيم الروحية في النشاط الاقتصادي فكل من النظامين مركز على المصالح المادية، ويعنى بمقاصد اقتصادية فقط وكل واحد من النظامين أوروبي الأصل ألماني البذرة.

وبمجرد أن تبين ضعف النظام الشيوعي وقبل أن يتم انهياره وجلاء قواته من أفغانستان بدأت المعسكرات الغربية تتوحد من جديد، وبدأت الاستعدادات لتوجيه قوة الغرب الجماعية نحو هدف آخر. وبدأت النعرات والدعوات لاتخاذ الإسلام عدوا للغرب تظهر.

وأعلن رئيس المجلس الوزاري الأوروبي الذي كان يتحدث باسم الحلف الأطلنطي أن الإسلام حل محل العدو الشيوعي، وأصبح يعتبر عدوا للغرب

بالرقم الأول. والجدير بالذكر أن هذا الحلف الأطلنطي الذي تقودها الولايات المتحدة هو من أكبر الآليات العسكرية الغربية التي تم تأسيسها لمحاربة الشيوعية.

وهذا الإعلان جاء بمثابة إعلان للحرب على العالم الإسلامي. فبدأت الصحافة الغربية والإعلام الغربي- حتى المجلات العلمية الجامعية- تشن الحرب على العالم الإسلامي، فظهرت أعداد خاصة لعديد من المجلات الغربية المعروفة عن العالم الإسلامي، تمهيداً للأرضية وإعداداً للعقول والنفسيات.

ويبدو كأن الوقائع التي ظهرت على مسرح السياسة والاقتصاد في التسعينات وبداية القرن الواحد والعشرين لم تكن إلا مسلسلات متتالية لهذه الرواية الطويلة

فهذا الرئيس الأمريكي السابق نيكسون الذي يعتبر من كبار المفكرين وتعتبر كتاباته من الكتب الاستراتيجية المهمة يقول بصراحة ووضوح، وبأسلوب دبلوماسي لطيف كل ما صرح به المفكر اليهودي صمويل هنتنجون في عبارة صريحة ويقول الرئيس نكسون في كتابه "الفرصة السانحة" أن العدو الأول هو الإسلام الذي يسميه بالأصولية الإسلامية.

ثم يشرح الأصولية الإسلامية ويعرفها بالنظرية التي تدعو إلى استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والتي تنادي بأن الإسلام دين ودولة، والتي تعتبر ماضي المسلمين مصدر هداية لمستقبلهم.

وتحقيقاً لهدف محاربة الأصولية الإسلامية دعا الرئيس نيكسون إلى تحالف جديد يضم الولايات المتحدة، وأوربا، وروسيا ليتمكن هذا التحالف

الجديد لمواجهة البعث الإسلامي الجديد، والعمل على فرض نمط علماني على العالم الإسلامي، نمط يقلد أتاتورك الذي وضع نموذجاً علمانياً منحازاً نحو الغرب وساعياً إلى ربط المسلمين بالغرب سياسياً واقتصادياً.

ولم ينته الأمر هنا بل أصبحت الصحافة العالمية تتناقل تصريحات القادة الغربيين والوزراء الأمريكيين المليئة بالسب والشتم للمسلمين والشخصيات الإسلامية المحترمة وصرحوا في هذه التصريحات عن كل نواياهم فيما يتعلق بمستقبل العالم الإسلامي، فقال أحد القادة الأمريكيين الذي كان مرشحا للرئاسة الأمريكية : إن الهجوم على أفغانستان والعراق عبارة عن حملة غربية لفرض القيم والمثل، وليس فقط لفرض السياسات. وإنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التي تراها ضرورية. ثم يقول: إن الشعارات التي أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهي عند الحدود الأمريكية بل تتعداها إلى الدول الأخرى.

ولم تتخلف القيادات الأوربية عن أصدقائهما وزملائهما الأمريكيين في هذا التصريحات. فقالت مارغريت تاتشر رئيسة وزراء انجلترا السابقة مشيرة إلى المعارك القائمة بين الغرب وبين العالم الإسلامي بعد أحداث أفغانستان أنها معركة القيم والمصالح، وقالت: إن المسلمين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب.

ثم قالت إن المسلمين يمثلون إيديولوجيا عدائية لأمريكا والغرب فهم مثل البلشفية في الماضي. ودعت إلى تبني إستراتيجية طويلة المدى ليتسنى للغرب هزيمة المسلمين كما تمكن من هزيمة الشيوعية والبلشفية.

هذه هي النوايا التي لا يخفيها أهل الغرب وهذه هي مقاصدهم وأهدافهم فيما يتعلق بمستقبل العالم الإسلامي. وليست البحوث العلمية والمقالات البحثية التي نشرها أمثال فوكوياما وهنتنجتون إلا أصداء ظهرت في لغة علمية لما باح به السياسيون في لغة دبلوماسية والصحفيون في لغة صحافية.

في هذه الخلفية ظهر المقال المعروف الذي نشره هنتنجتون في المجلة الأمريكية في عددها الصيفي لعام ١٩٩٣م.

وأثارت هذه المجلة جدلا كبيرا ونقاشا واسعا ليس له نظير في تاريخ المجلة منذ عام ١٩٤٠م على حد قول رؤساء تحرير المجلة. وقام أهل العلم والخبرة من جميع القارات ومن مختلف بلاد العالم بالرد والتفنيد لما جاء في هذا المقال.

وعلى حد قول المؤلف كان المقال سؤالا وجه إلى الأوساط العلمية العالمية، وادعى المؤلف أن الكتاب الذي ظهر في نفس الموضوع بعد ثلاث سنوات من نشر المقالة كان جوابا مفصلا علميا موثقا مدروسا على هذا التساؤل.

ومن أهم القضايا التي أثارها المؤلف في هذا الكتاب وقبله في المقالة تشمل القضايا الآتية:

- فكرة الحضارة والحضارات، هل يمكن ظهور حضارة عالمية؟
- الصلة بين القوة والثقافة.
- التغيير في توازن القوة بين الحضارات.
- ظاهرة التركيز على إعادة بناء الثقافات في بيئات تشريعية على أسس محلية.
- أهمية الصراعات التي أثارتها الاتجاهات العولمية في الحضارة الغربية.
- قضية التعسكر الإسلامي والإصرار الإسلامي على هوية المسلمين وشخصيتهم.

- قضية الإصرار الصيني على هوية الصينيين.
- ما هي الإجابات الغربية وردود فعل الغرب على النهضة الصينية.
- مستقبل الغرب وعالم الحضارات.

وأثار المؤلف قضية أخرى تهم مستقبل العالم الإسلامي، وهي قضية يتجاهلها كثير من المسلمين،وهي قضية ازدياد عدد السكان في بعض المناطق وتأثير هذا الازدياد على توازن القوة في العالم.

والجدير بالذكر أن المقال لم يشر إلى أخطار هذا الصراع ولم يتطرق إلى نتائجه وعواقبه، فإن صراع الحضارات وصدامها لا يأتي إلا بعواقب وخيمة ونتائج سلبية بعيدة المدى على الإنسانية كلها، ولكن أشار المؤلف إلى هذه الناحية إشارة خفيفة في تمهيد كتابه وفي الجملة الأخيرة من الكتاب، حيث يقول المؤلف: إن هذا الصراع من أشد العوامل خطورة على السلام العالمي، وإن أحسن الضمانات وأكبرها في وجه حرب عالمية هو (تأسيس) نظام عالمي جديد مبني على الحضارات.

هذا هو الوضع الفكري، وهذه هي الأرضية النفسية التي ندرس فيها الحوار بين الحضارات وانقسم العالم الإسلامي في قضية الحوار مع الحضارة الغربية خاصة إلى فئتين : فئة تتسم بالتشاؤم واليأس الكامل عن جدوى الحوار، وذلك لأسباب واضحة ظاهرة، فترى هذه الفئة أن الضغوط السياسية المتزايدة على العالم الإسلامي من قبل القوى الغربية والتدهور الاقتصادي الذي يعاني منه عدد كبير من دول العالم الإسلامي ومحاولات فرض العولمة من قبل العالم الغربي لتحقيق مصالح الغرب الاقتصادية والسياسية، كل

ذلك لا يترك مجالا لظهور نتائج إيجابية من هذا الحوار.

ثم تفوق الغرب التقني والعلمي بالإضافة إلى تقدمه الكبير في القوة العسكرية لا يوفر أرضية متساوية للفريقين للدخول في الحوار ثم استسلام عدد كبير من القيادات الفكرية في العالم الإسلامي استسلاما فكريا أمام الغرب وخضوع عدد كبير من زعماء المسلمين خضوعا سياسيا أمام الغرب لم يترك مجالا لتحقيق أي هدف إيجابي وكل ذلك في وقت اتفقت فيه كلمة الغرب بأهمية فرض القيم الغربية على العالم الإسلامي بكل الوسائل المتاحة.

ولا شك أن فوكوياما يمثل العقلية الغربية عندما يقول : إن الحداثة التي تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية والديمقراطيات المتطورة ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية، وإن المؤسسات التي تجسد مباديء الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم، ويشير إلى إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي لديها مشاكل أساسية مع الحداثة.

ويبدي فوكوياما استياءه عن رفض العالم الإسلامي مبدأ العلمانية قائلاً: إن الحركات الأصولية الإسلامية لا ترفض السياسات الغربية فحسب، بل ترفض المبدأ الأكثر أساسية للحداثة وهو العلمانية نفسها، فالمسألة ليست ببساطة حربا على الإرهاب وليست المسألة الحقيقية هي السياسات الخارجية الأمريكية في فلسطين أو العراق ثم يلخص رأيه قائلاً: إنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي، ألا وهو علمانية الدولة. وهذا يمثل تحديا أكبر بكثير من التحدي الشيوعي.

ولكن على الرغم من هذه الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى التشاؤم

واليأس الكامل من جدوى الحوار؛ إلا أن هناك فئة تتحمس للحوار وهي متفائلة تفاؤلاً كبيراً، وترى في الحوار الخير للعالم الإسلامي والأمن والسلام للجميع، وذلك لأن العالم الغربي والشرقي على الرغم من هذه السلبيات يتعطش إلى دعوة الإسلام وإلى الرسالة المحمدية، فنرى انتشار الإسلام بسرعة فائقة في مشارق الأرض ومغاربها بما فيها العالم الغربي، وبدأ الإسلام ينتشر بسرعة فائقة في بلاد أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبح من الأديان المعترف بها في بعض البلاد الأوروبية، ثم هناك عدداً كبير من المسلمين الذين إما ولدوا في البلاد الغربية وأصبحوا مثل أبناء هذه البلاد لغة وتجنسا ومعيشة وتكيفوا من عادات البلاد وأصبحوا مثل السكان الأصليين، أو هم من السكان الأصليين للبلاد من المسلمين الجدد الذين يزداد عددهم وتتزايد نسبتهم بمضي الوقت وهؤلاء الأعداد الهائلة تمثل قوة لا يمكن تجاهلها للحكومات وأصحاب القرار وأصحاب النفوذ.

فهذه الأعداد المتزايدة للمسلمين في بلاد الغرب والشرق تقتضي أن يكون هناك حوار شامل دائم للحفاظ على مستقبل هذه البلاد ومستقبل الغرب نفسه يتطلب هذا الحوار إن عدد المسلمين بلغ في الولايات المتحدة عشرة ملايين وفي فرنسا إلى سبعة ملايين وفي روسيا إلى عشرة ملايين وفي كل من ألمانيا وبريطانيا إلى ما يتجاوز أربعة ملايين هذا بالإضافة إلى ما يتجاوز مائة مليون مسلم في الصين ومائتي مليون مسلم في الهند.

فهذا الوضع المتوتر القائم والذي يدعو إلى تكثيفه واستمراريته بعض المتحمسين في الغرب والشرق لا يؤدي إلا إلى نتائج سيئة جدا للجنس البشري كله ويتوقف الأمن والسلام في كل هذه المناطق إلا بالحوار المكثف

البناء ذوي الأبعاد بين الحضارات التي تمثلها هذه البلاد.

ثم الدول الإسلامية تمثل ثلث أعضاء الأمم المتحدة والقرارات العالمية التي تؤثر في مستقبل البشرية تصدر أغلبيتها من الجمعية العمومية للأمم المتحدة التي تمثل ثلثها دول العالم الإسلامي.

إن إصرار المسلمين على التزامهم بمباديء الإسلام وتعاليم القرآن وطموحهم لإحياء دولة الإسلام تطبق فيها شريعة الإسلام وتعاليم القرآن يعتبر عند بعض المفكرين الغربيين عقبة في سبيل علاقات المسلمين بين الحضارات كما أشرنا إليها، ولكن ينبغي أن لا تكون هذه الطموحات الإسلامية والأماني والآمال الإسلامية موضع اعتراض وتردد وتحفظ عند هؤلاء المفكرين فإن عددا منها لا تختلف في حقيقتها ومغزاها عن الفكرة التي جاءت في إعلان الاستقلال الأمريكي الذي يعترف بأن القانون الطبيعي مصدره خالق الكون والحقوق الأساسية للإنسان جاءت من خالق الكون ولا يجوز العدول عنها.

وليس الطموح الإسلامي الذي يسمى بالأصولية عند الغرب إلا رجوعاً إلى هذا المبدأ بالذات وإصراراً على نفس الفكر وما يسمى بالأصولية ليست إلا محاولة جماهيرية ديمقراطية سلمية للرجوع إلى قانون قرآني مصدره خالق الكون والذي يتضمن حقوقا وأحكاما وفرائض وواجبات أصدرها خالق الكون.

وأما استياء بعض الكتاب الغربيين بطموح المسلمين بتحقيق قيمهم وإعادة مثلهم فينبغي ألا يكون أيضاً مانعاً من حوار حضاري شامل، لأن هناك استياءات يعبر عنها بعض الكتاب الغربيين عن استعلاء القيم الأمريكية وفرض

السياسة الأمريكية والإرادة الأمريكية على دول أوروبا حتى قال بعض الكتاب الفرنسيين: إن الحضارة الأمريكية تشكل خطرا على الحضارة الفرنساوية.

والتحفظات الألمانية والفرنساوية حول السياسة الأمريكية الهيمنية أمر معروف فإذا كان العالم الغربي تمكن من وضع سياسة مشتركة فيما يتعلق بمصالحه المشتركة على الرغم من هذه الخلافات والتحفظات فلا مانع لنا من الدخول في حوار مكثف مع الغرب خاصة ومع الحضارات الأخرى عامة.

إن العالم الإسلامي لا يريد أن يستبد بالقرارات في مصير الأمم ومستقبل العالم ولم يتخذ هذه السياسة في ماضيه ولن يتخذها في المستقبل لأن المبادئ والأسس التي تبتني عليها هذه السياسة -سياسة التدخل والاستبداد- متعارضة مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تعلن بصراحة : لست عليهم بمسيطر -فأمرنا أن نترك الناس خارج الأمة الإسلامية وما يدينون، فلا يريد العالم الإسلامي انطلاقا من تعاليم دينه أن يبعد الناس عن موكب الحياة حسب ثقافتهم ونظرياتهم، ولكن العالم الإسلامي لن يسمح أيضا أن يبعده أحد عن موكب الحياة. وإن حاول ذلك أحد وأصر على هذه المحاولة تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

وجل ما تهفو إليه الأمة الإسلامية أن تساهم في بناء مستقبل حضاري للبشرية، مستقبل مبني على مباديء الأخلاق والعدالة مستقبل يسوده جو الإيمان وتغشاه سحابة من العواطف الروحانية وتريد أن تكون مشاركتها مشاركة فعالة ريادية مع الحفاظ ليس على هويتها فحسب بل على هوية الآخرين، علما بأن الشريعة الإسلامية تهتم بالحفاظ على الهويات

والشخصيات التي جعلت وسيلة للتعاون بين البشر.

وهذا يتطلب حوارا متواصلا بين الحضارات والثقافات. ولا بد لذلك من الخروج عن إطار الحوارات التقليدية التي تتركز على العقائد وعلى تعاليم الدين التي لا يمكن أي تساهل أو مداهنة فيها فالمناقشات المستمرة في باب العقائد وأسس الدين لا تأتي بشيء يذكر ولم تأت بكبير فائدة، فيجب التركيز على الحوار الحضاري لتشكيل مستقبل حضاري أفضل للبشرية.

أسس الحوار

إن العدل جماع كل ما وردت به الشريعة من مقاصد وأهداف بل الشرائع الإلهية والرسالات السماوية كلها جاءت لتحقيق العدل الحقيقي الكامل بين أتباعها فقال عز من قائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، ولا شك أن هدف تحقيق العدل من أهم ما يمكن أن تجتمع عليه الأمم والشعوب في العالم المعاصر الذي كثر فيه الظلم و تنوعت فيه أنواع الاستغلال من القوي للضعيف، فلا تعاني الأمم الضعيفة والبلاد الفقيرة من آفة ومصيبة أخرى، كما تعاني من الظلم والاستغلال والاضطهاد ومن المصائب والويلات التي تأتي من جرائه من الفقر والبطالة والأمراض والأوبئة والتخلف.

والحقيقة أن مانراه اليوم من تكاتف المشكلات السياسية والاقتصادية والبيئية وترادف كثير من القضايا التي تواجه الدول المتخلفة يرجع سببها الى اختلال توازن العدل في توزيع الوسائل والثروات وعدم الأخذ بمعايير العدالة في المعاملات الاقتصادية والعلاقات الدولية.

وينبغي لذلك أن يتم أولا الحوار مع القوى الشرقية والجنوبية التي تعاني من نفس المعاملة، وتعبر عن نفس الشكاوي التي تشكو منها دول العالم الإسلامي، وذلك ليكون موقف المظلومين والمضطهدين متقاربا إن لم يكن موحدا في حوارهم مع العالم الغربي، ثم هناك مجموعة من المثقفين النقديين في العالم الغربي، الذين يرفعون أصواتهم من حين لآخر ضد الهيمنة الغربية التي تمثلها كتلة مغرضة مكونة من مجموعة من زعماء بعض الدول الغربية ومجموعة من أصحاب الشركات العالمية ذات الجنسيات المتعددة والقيادة الصهيونية، فالتحالف والتضامن مع هذه العناصر المعتدلة التي لا يندر وجودها في الشرق والغرب يتوقع أن يكون من مبشرات الخير في تحقيق أهداف الحوار.

والجدير بالذكر أن الأغلبية الغالبة من الشعوب الغربية لا تشعر بالعداء ضد الإسلام فلا ينبغي بل لايجوز لنا أن نعتبر كافة أهل الغرب من صفوف الأعداء والمعارضين كيف وهم أمة الدعوة ويتوقع من كل منهم أن يصبحوا إخوانا وأعضاء في أمة الاجابة.

أما العداء والحقد الذي يظهر أحيانا في سياسة مجموعة من زعماء الغرب فلا تمثله إلا أقلية ضئيلة لأصحاب الأغراض والأهواء وبينهما مجموعة تأثرت بالدعاية وأنواع المكر والكيد التي اتخذتها هذه الأقلية المغرضة.

ثم الحفاظ على البيئة قضية لها أهميتها لمستقبل البشرية وحضارتها ويمكن أن تكون هذه القضية من الموضوعات المشتركة المعنية عند جميع الحضارات الكبيرة، ويمكن أن يتم اتفاق عالمي على مبادئ مشتركة للحفاظ على البيئة علما بأن الشريعة الإسلامية ورد في أحكامها وقواعدها العامة ما يعالج

مشكلات البيئة وقضية التلوث البيئي، ويمكن إزالة عديد من الإشاعات الفاسدة والأغاليط المغرضة والأباطيل الواهية التي نشرها أعداء الإسلام عن الشريعة الإسلامية بتقديم حلول إسلامية عملية متزنة لقضايا البيئة والتلوث البيئي الذي قد يؤدي إلى التلوث الحضاري.

ويبدو أن الظاهرة الحضارية التي شاهدتها القرون المتوسطة في صقلية والأندلس وجنوب إيطاليا وشرق أوروبا قد تتجلى مرة أخرى في مجالات جديدة. كانت ظاهرة التعاون الحضاري والأخذ والعطاء فيما يتعلق بالعلوم والمعرفة والثقافة في مجال علوم الطب والفلسفة والفكر والعلوم التجريبية كما يعترف به عدد من الكتاب المنصفين في الشرق والغرب.

وقد يكون المجال لتجلي هذه الظاهرة ولتحقق نتائج هذا الحوار الحضاري في مجال الأخلاق والمثل الاجتماعية والقيم الروحانية وتصحيح العقائد، والجدير بالذكر هنا أن الإقبال في العالم الغربي على التراث الإسلامي في المجال التربوي وكتب التزكية أكبر بكبير مما كان عليه في القرون السابقة وهذه الظاهرة بدأت باستغلالها بعض الطوائف المنحرفة والجماعات المغرضة وأتباع الفكر الباطني بنشر الأدب الباطني والدعوة الى الفكر الباطني المنحرف. فيجب علينا نحن المسلمين ألا نترك هذا الفراغ خاليا من الأدب التربوي الإسلامي المتزن .

ثم ما يزعمه بعض الناس في الشرق والغرب أن الحوار بين الحضارة الإسلامية المبنية على أسس دينية وقواعد شرعية وبين الحضارة العلمانية لا يؤدي إلى نتائج وثمرات ليس على إطلاقه ولا ينطبق في جميع الأحوال لأن

الحضارات الكبيرة كلها قامت على أسس من الدين.

وتشكل العقائد الدينية ركنا هاما من البناء الحضاري في كل أمة فالدين كان ولا يزال من أهم مكونات الحضارات بما فيها الحضارة الغربية المعاصرة. فعلى الرغم من المظاهر العلمانية للحضارة الغربية فإن المسيحية والعقائد الدينية للأمم الأوروبية من أهم مكونات الحضارة الغربية ولذلك يسمى كثير من الكتاب الغربيين حضارتهم بالحضارة المسيحية.

وتأثير العقائد المسيحية وتعاليمها لا ينحصر في المظاهر الحضارية بل يتعداها إلى أمور كثيرة. فالفلسفة الغربية تأثرت وأخذت الكثير مما كتبه الآباء المسيحيون ورجال القانون في الغرب أخذوا كثيرا من بقايا تعاليم الدين المسيحي والقانون الدولي الغربي الذي يعتز به العالم الغربي ويعترف بكونه مستمدا من التعاليم المسيحية، وكانت الآداب والتعاليم المسيحية من أهم عناصر هذا القانون وأحكامه لقرون طويلة حتى إن كثيرا من الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن القانون الدولي الغربي خلال العقود الأولى من القرن العشرين ذكروا الديانة المسيحية والأخلاق المسيحية من بين مصادر القانون الدولي وكل ذلك يدعو إلى التفاؤل في جدوى الحوار بين الحضارة الإسلامية التي لم تتنازل ولن تتنازل - إن شاء الله - عن قواعدها الدينية وتعاليمها الشرعية وبين الحضارة التي انبثقت من تعاليم الدين المسيحي والتي بدأت تتضايق بذكر الديانات والتعاليم الدينية في المعاملات الدنيوية، على الرغم من أن التعصب الديني الشديد يملي كثيرا من سياسات الدول والحكومات المنتمية إلى هذه الحضارات .

العوامل المخلة بالسلام

هذه هي الوضعية الفكرية والحضارية التي نعيش فيها الآن.

ونجد أن هناك أسبابا كثيرة تهدد السلام العالمي والأمن الداخلي في كثير من البلاد الإسلامية. ويرى الكتاب الغربيون ويحاولون أن يقنعوا الجهات المعنية في العالم الإسلامي بأن التوازن بين القوى العسكرية والاقتصادية العالمية هو الذي يضمن السلام العالمي.

وإذا اختل هذا النظام العالمي يختل التوازن العالمي، وعندما يذكر الكتاب الغربيون القوى العسكرية أو القوى العالمية فيعنون بذلك الدول الغربية الكبيرة التي سيطرت على وسائل العالم وثرواته بتفوقها الفني والتقني وتقدمها المادي وقوتها العسكرية ويهتم كثير من الكتاب الغربيين وأتباعهم الشرقيين بالخلل الاقتصادي كأهم أسباب اختلال السلام العالمي. فيهتمون بالتطور الاقتصادي على النمط الغربي، وينادون بالأخذ بالأنماط الغربية للأنشطة الاقتصادية والانتاج والتصنيع وبناء البنية التحتية وما إلى ذلك.

على الرغم من أهمية النشاط الاقتصادي وعلى الرغم من ضرورة تكثيف النشاط الاقتصادي فإن التركيز على الجانب الاقتصادي على النمط الغربي يؤدي إلى غض النظر عن الأسباب والعوامل الأخرى الأكبر أهمية والأكثر تأثيرا في الإخلال بالسلام العالمي وفرض العبودية والاستسلام على العالم الإسلامي. فأهم الأسباب التي أدت إلى الإختلال بالسلام العالمي هي تتلخص فيما يلي :-

١-الحكر العلمي الذي اتخذته الدول الراقية من أهم قواعد سياستها التعليمية والتربوية، واحتكار العلم والمعرفة ومنع البشر من الورود على مناهل العلم والمعرفة من أكبر الجرائم الحضارية فكانت الحضارات حتى بداية القرن العشرين تفيد بعضها من بعض وكان الأخذ والعطاء الحضاري من أهم مزايا التعامل البشري الذي يميز الإنسان من أبناء جنسه من الحيوانات الأخرى.

ولم تمانع الحضارة الإسلامية من أن يستفيد من علومها ومعارفها المشارقة والمغاربة. ولكن الحضارة الغربية المعاصرة جعلت العلم والفن وسيلة للاستيلاء والسيطرة على العالم وأغلقت كثيرا من أبواب المعرفة أمام أبناء الشرق الإسلامي لأن العلم والمعرفة أصبحت عند الغرب بضاعة تجارية ووسيلة لاستغلال الأمم. فيقال إن تسعين بالمئة من الخبراء في العلوم التجريبية يهتمون بمجالات تمكن البلاد الغربية من الحفاظ على سيطرتها وتكثيف هيمنتها على العالم وإعداد أسلحة الدمار الجماعي والهلاك الشامل.

٢- ارتكاز وسائل العلم وثروات الكوكبة الأرضية عند أقلية من البشر وحرمان أغلبية البشر من هذه الثروات والوسائل أيضا من أهم الأسباب التي أخلت بالسلام العالمي فيقال أن أكثر من أربع وثمانين بالمئة من الوسائل الكونية والثروة الكوكبية تحت تصرف وسيطرة مجموعة قليلة من البشر لا تتجاوز نسبتها عن ٢٩ بالمائة.

وأما الثروة والوسائل المتبقية وهي ٦١ بالمائة فهي في تصرف ٨١ بالمائة من البشرية. وهذا النصيب الضئيل الذي بقي في أيدي الأغلبية الغالبة من الأجناس البشرية فينتقل أيضاً بسرعة هائلة إلى البلاد الغربية، وذلك عن

طريق النظام المصرفي العالمي وعن طريق الشركات العالمية ذات الجنسيات المتعددة وعن طريق قواعد العولمة الجديدة، وكل هذا يؤدي الى تقليل الوسائل والثروات في العالم المتخلف وتكثيفها وازديادها في العالم الغربي وليست قلة الموارد الغذائية في كثير من بلاد العالم الإسلامي من الأمور التي حدثت صدفة. وليست هي نتائج لمجرد سوء الإدارة.

٣- استغلال الوسائل العالمية والمحلية والوطنية لتحقيق مصالح القوى العالمية سبب كبير من أسباب اختلال السلام، وهذا ما نرى مظاهره في كل بلاد العالم بما فيها بلاد العالم الإسلامي.

٤-ظهور النعرات القومية في العالم الإسلامي على أيدي كتاب مسيحيين وعلى أيدي المستشرقين وأتباعهم ثم استغلالها من قبل الاستعمار لتفتيت البلاد الإسلامية الكبيرة من الأسباب القديمة للإخلال بالسلام والحروب المتواصلة في كثير من البلاد، وكانت هذه النعرات بتأثير مباشر من الثقافة الغربية والتعليم الغربي وأدت إلى انقسام البلاد الإسلامية الى دويلات صغيرة وذلك بتأييد كامل وتمويل ودعم أدبي ومادي من الدول الغربية.

٥-استغلال المنظمات العالمية من قبل الدول القوية وعلى رأسها الولايات االمتحدة لتحقيق مصالح الاستعمار كان حافزا كبيرا في شن الحروب خلال العقود الأخيرة خاصة.

ويبدو أن الهدف الحقيقي من وراء تأسيس عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وتأسيس منظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية على أيدي الفاتحين في كل واحدة منها كان الغرض الرئيسي منه هو الحفاظ على مصالح

الفاتحين والضمان على توزيع الغنائم فيما بينها واستمرارية نفوذهم في قضايا مصيرية للعالم كما يدل عليه نظام الأمم المتحدة والجدير بالذكر أن المفكر الإسلامي العلامة محمد إقبال كان قد علق على عصبة الأمم عند تأسيسها قائلا: " أنا لا أعلم أكثر من أن مجموعة من النباشين أسسوا جمعية لتوزيع القبور فيما بينهم " .

ويدل على صدق هذا التعليق أداء الأمم المتحدة وقبلها عصبة الأمم في القضايا التي تتعلق بالعالم الإسلامي فكان دور هاتين المنظمتين دور المراقب المحايد. وكان دورهما في قضايا أخرى دور مشارك فعال فكانت محاولات التطهير العرقي في قلب أوروبا على مرأى ومسمع من القوى الأوروبية والأمم المتحدة التي تنادي كل منها بمباديء رفيعة ونعرات خلابة ودعوات جذابة كانت مستمرة لمدة تجاوزت سنوات طويلة وتدل هذه المحاولات التي سببت ضحايا بشرية لا مثيل لها في أراضي أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية على ارتياح القيادات الأوروبية على هذا التطهير وتدل على أن هناك أناسا في الغرب لا يهمهم السلام العالمي، ولا حقوق الإنسان، ولا كرامة البشر، ولا الحوار الحضاري.

٦- فرض النموذج الحضاري الغربي على العالم الإسلامي وهو من أهم أسباب الاختلال في السلام العالمي.

٧-التسلح المتزايد من قبل بعض الدول المجاورة للبلاد الإسلامية الكبيرة من أكبر اسباب الخلل في السلام العالمي، فالتسلح النووي عند كل من إسرائيل والهند منذ أكثر من أربعين سنة بدون أدنى اعتراض وتحفظ من

العالم الغربي، وبدون أي تدخل من المؤسسات العالمية المعنية واتخاذ سياسة مغايرة تماما فيما يتعلق بباكستان والعراق وإيران يؤدي إلى خلل دائم في السلام العالمي.

٨- ثم محاولات الهيمنة على بلاد العالم من الدول الغربية من أهم هذه الاسباب.

٩- استخدام وسائل الضغط استخداما جليا وخفيا لمواصلة هذه الهيمنة.

١٠- وأخيراً لا آخراً التعاون بين الكيان الصهيوني الغاشم وبين الاستعمار العالمي.

معالجة هذه الأسباب

لاشك أن هذه الأسباب كلها تؤدي إلى الإخلال بالأمن والسلام، ولابد من معالجتها للسلام العالمي، ويمكن لمعالجتها اختيار استراتيجيتين مختلفتين للقضاء على أسباب الحروب وبواعث انتفاض السلام العالمي.

استراتيجية البناء من فوق وهي من اختصاصات الدول والحكومات وتتلخص هذه الاستراتيجية في وضع سياسات الدول وقرارات الحكومات على المستوى الوطني وتنفيذها على نطاق الدولة وهذه الاستراتيجية تعنى بإزالة أسباب الخلاف والقضاء على حالات الظلم والإستقلال وعدم المساواة في الدولة وخارجها وكل ذلك بإعادة توزيع الثروة وضمان الأمن الداخلي واستقلال القضاء وسياسة القانون ودستور البلاد والعمل للسلام العالمي.

استراتيجية البناء من تحت وهي تشتمل على خطوات تبدأ من المجتمع

ومن الأفراد والجماعات العاملة في المجتمع وهذه الاستراتيجية هي التي تعنينا لمعالجة القضايا التي نحن فيها وقضية الحوارات بين الحضارات وبين أتباع الديانات يشكل جزءا هاما من هذه الاستراتيجية.

والخطوة الأولى في تحقيق هذا الحوار فيما يتعلق بالحوار العالمي الحضاري أن يتم الاعتراف بتعدد الحضارات وحقيقة التنوع الثقافي والتعدد الحضاري. وهذا يتطلب أن يجتنب أتباع حضارة عن فرض قيمهم على أتباع حضارات أخرى.

والجدير بالذكر أن منظمة الأمم المتحدة بمؤسساتها المختلفة أصبحت لعبة ووسيلة في أيدي مجموعة من أتباع الحضارة الغربية فيريدون فرض قيمهم وعاداتهم ومظاهر ثقافتهم على العالم كله مستغلين في ذلك منابر الأمم المتحدة ومؤسساتها كما تبين بجلاء ووضوح من مؤتمرات القاهرة وبكين.

ونحن نشعر بأن هذه المحاولات نوع جديد من الاستعمار والتنصير فالعالم الإسلامي لايمانع من الاستفادة من تجارب الغرب في مجالات العلوم والتقنية والاكتشافات الكونية ورفع المستوى المعيشي، ولكن هذه الاستفادة لا تعنى الأخذ بالحداثة الغربية بحذافيرها فالحداثة تشتمل على إيجابيات وسلبيات ومن الصعب جداً التمييز بين ايجابياتها وسلبياتها وذلك لأن الحداثة ذات صلة قوية بالتغريب التي هي عبارة عن تصبيغ البيئة والمجتمع والثقافة والحضارة والتعليم بصبغة غربية كاملة بكل قضها وقضيضها، فالتغريب متداخلة مع الحداثة ولازم لها والتغريب جذورها عميقة في التنصير والتبشير المسيحي والتنصير هو الخطوة الأولى للاستعمار

الغربي، فالاستعمار الغربي دخل في كثير من البلاد الشرقية والجنوبية باسم التبشير المسيحي، والتبشير المسيحي مهد الطريق لدخول الاستعمار باسم التجارة والصناعة. ثم كلما استقرت تجارته وصناعته في بلد من البلاد امتدت جذوره وتمكن من جره إلى البلاد.

فلا بد لذلك أن نُصرَّ على الاعتراف بالتنوع الحضاري وحرية الرأي والفكر للجميع، وتنوعَ الآراء وأن اختلاف الكلمة حقيقة كبرى في تاريخ الأفكار والحضارات. وهو أمر لا بد منه في حوار الحضارات. والتبادل الحضاري يجب أن يتم بعد قرار حكيم حر من الطرف المستفيد. ففرض التجارب الخاصة بقوم دون قوم على جميع البشرية وإصدار النماذج والأنماط المختصة بحضارة دون حضارة لا يسمى تبادلاً حضارياً، بل يسمى نوعاً من الاستعمار العقلي والاستعباد الفكري.

ثم لابد لهذا الحوار من إعداد قيادات حكيمة واعية متعمقة الجذور في حضارتنا وثقافتنا من بين العلماء والمشائخ ومن بين الجامعيين ومن بين أصحاب الثقافة والإعلام أما أصحاب العقليات المنهزمة وذوو اللهجات الاعتذارية الذين وصلوا إلى مناصب عالية في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيعون الدفاع عن الإسلام في حوار حضاري حر، لأنهم هم الذين وفروا هذه الفرص السانحة للاستعمار الفكري والحضاري ليتسرب إلى بلاد الإسلام وكذلك لا يمكن لأصحاب المعرفة الضعيفة المحدودة عن الإسلام أن يشاركوا في أي حوار جاد عميق مع الحضارة الغربية.